الفصل الثالث

اللغة العربية وأهميتها

الفصل الثالث

اللغة العربية وأهميتها

إن عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها تجعل من الضروري الاهتمام بتعليم وتعلم اللغة العربية للناطقين بها والناطقين بغيرها من العرب والمسلمين، فهي بالإضافة إلى أنها اللغة الأم لم يربو على مائة وستين مليونًا من المسلمين العرب، فإنها اللغة المقدسة لما يربو على ألف مليون مسلم في جميع أنحاء الأرض. حيث إنها لغة القرآن الكريم. وتلاوة القرآن وتدبر آياته أمر ضروري لكل مسلم. والعربية –بطبيعة الحال– هي أقدر اللغات التي تعين المفكر والمتدبر على فهم آيات الله.

وجميع المسلمين يدركون هذه الحقيقة الواضحة وهي أن لآيات الله ظلالاً وإيحاءات ضاربة الجذور في أعماق اللغة العربية. ولهذا فليس بعجيب أن يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ في شأن القرآن فيقول:

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ – ١٩٥].

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر: ٢٧- ٢٨].

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فصلت: ١- ٣].

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى: ٧].

وعلى ذلك فإن تعلم اللغة العربية ليس مهمًا للناطقين بها فقط، بل مهم أيضًا للمسلمين الناطقين بغيرها، وذلك لأن ترتيل القرآن وقراءته وتدبر آياته والعمل بها فرض على كل مسلم: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤]، {فاقرءوا ما تيسر من القرآن} [المزمل: ٢٠].

إن الثقافة الإسلامية هي الأسلوب الكلي لحياة المجتمع الإسلامي. فاللغة العربية لا يجب أن تعلم إلا من خلال الثقافة والحضارة التي أوجدتها وحافظت عليها. ولقد أكدت الدراسات الميدانية أن الدارس الذي لا يحترم حضارة اللغة التي يتعلمها، لن يستطيع التقدم في تعلم هذه اللغة. وهذا يعني أننا يجب أن نعلم اللغة العربية من خلال ثقافة الأمة الإسلامية وحضارتها.

طبيعة العربية وخصائصها:

اللغة العربية لغة غنية، دقيقة، شاعرة، تمتاز بالوفرة الهائلة في الصيغ، كما تدل بوحدة طريقتها في تكوين الجملة على درجة من التطور أعلى منها في اللغات السامية الأخرى[1]. وهي لغة متميزة من الناحية الصوتية، فقد اشتملت على جميع الأصوات التي اشتملت عليها اللغات السامية الأخرى[2].

وأصوات اللغة العربية تستغرق كل جهاز النطق عند الإنسان. وتخرج من مخارج مختلفة تبدأ بما بين الشفتين في نطق حروف كالباء والميم والفاء، وتنتهي بجوف الناطق في نطق حروف المد: الألف والواو والياء التي تخرج من الصدر والحلق وتنتهي إلى خارج الفم.

واللغة العربية لغة صنعت قانونها بنفسها. فالعرب أهل غناء، يحدون الإبل، ويعرفون الدف والمزمار والربابة. وقد تدرجت هذه المعرفة فإذا هم شعب يغني. وقد ساعدتهم العربية على ذلك، فإن لها جرسًا ورنينًا موسيقيًا. فإذا تكلم ذو بيان فإنك تطرب لسماعها، وتفهم بيانها، وترتاح لتبيانها. وهي بهذا الجرس والرنين منحت العربي التفوق في الأداء، غناء أو شعرًا على وزن وقافية.

(١) كارل بروكلمان: فقة اللغات السامية. ترجمة رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، ١٣٧٩هـ ١٩٧٧م، ص٢٩.

(٢) علي عبد الواحد وافي: فقة اللغة، القاهرة، دار نضة مصر للطبع والنشر، بدون تاريخ، ص ص ١٦٥ – ١٦٦.

وشعر الجاهليين القوي في معناه ومبناه دليل على أن العرب شعب يغني. وليست البراعة من الخليل بن أحمد أن حصر أوزان الشعر، ولكن الروعة والإبداع هو من اللغة التي منحت العربي القدرة على أن ينظم شعرًا محصورًا في هذه الأوزان. فالخليل بن أحمد لم يقنن وإنما استقرأ وفقه[1]. فاللغة الشاعرة صنعت قانونها في هذه البحور التي تعددت أوزانها وتناسقت تفاعيلها.

واللغة العربية لغة مرنة. ويظهر ذلك من طواعية الألفاظ للدلالة على المعاني. وطواعية العربية تتمثل أكثر ما تتمثل في ظاهرتي الترادف والاشتقاق بصفة خاصة، وفي قدرتها على استيعاب المولد والمعرب والدخيل بصفة عامة.

الترادف:

وإذا كان الترادف ظاهرة موجودة في كل اللغات، فإنه قد بلغ شأنًا عظيمًا في اللغة العربية، كما أنه يعد أحد مفاخرها ودليل سعتها وغناها. وقد افتخر الأصمعي بأنه يحفظ للحجر سبعين اسمًا. وافتخر ابن خالويه في مجلس سيف الدولة بأنه يعرف للسيف خمسين اسمًا[2].

ولقد وجد للترادف في اللغة العربية، من ينكر وجوده أصلاً، كما وجد من يؤيد وجوده. فابن الأعرابي ينكر وجود الترادف، ويقول –نقلاً عن ثعلب–: «كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، في كل منهما معنى ليس في صاحبه»[3].

وابن فارس ينكر الترادف أيضًا. وهو يبرر الفروق بين الأسماء قائلاً «المائدة» لا يقال لها مائدة حتى يكون عليها طعام. و«الكأس» لا تكون كأسًا حتى يكون فيها شراب، وإلا

(١) محمد حسين زيدان: "أيهما زرياب" الشرق الأوسط، ٢١/ ٨/ ١٩٨٤م، ص١٣.

(٢) عبد الحميد الشلقاني: مصادر اللغة، الرياض، عمادة شئون المكتبات بجامعة الملك سعود، ١٩٨٠، ص ص ٢٢٦– ٢٢٨.

(٣) ابن الأنباري: الأضداد، ٧، في المرجع السابق، ص٢٢٧.

فالأولى «خوان» والثانية «قدح» أو «كوب»[1] ولكنه لم يوضح لنا الفرق بين القدح والكوب، وغلا فهما على هذا القدر من التساوي مترادفان، وبذلك لا يستقيم أمر إنكار ابن فارس للترادف.

وقد حاول ابن فارس الدفاع عن وجهة نظره في إنكار الترادف، فقال: إن في «قعد» معنى ليس في «جلس» فالقعود يكون عن قيام، والجلوس يكون عن اضطجاع، فالجلوس ارتفاع عما هو دونه. ولكن ابن جني كان يرى هذا إيغال في التكلف. ولما ذكر ابن خالويه أنه يعرف للسيف خمسين اسمًا، قال ابن فارس: إني لا أعرف له إلا اسمًا واحدًا هو السيف. فقال ابن خالويه: وماذا تقول في المهند والصمصام والبتار؟ قال: إنها صفات.

وقد أقر ابن جني الترادف. ويفسر هذه الظاهرة على النحو التالي: فاللفظتان إما أن تكونًا متساويتان في المعنى ولكن العرب قد تركوا ذلك للحاجة إليه في أوزان شعرهم وسعة تصرفهم في أقوالهم... وكلما كثرت الألفاظ للدلالة على المعنى الواحد، فإن هذا يعني أن هذه الألفاظ هي استعمالات لجماعات أو قبائل مختلفة، لكن هذه الألفاظ اجتمعت لإنسان واحد من هنا ومن هناك[2].

وهذا الذي يراه ابن جني كان دائم الحدوث في المجتمع القبلي الذي كان ينتقل من مكان إلى مكان سعيًا وراء الماء والمراعي. فالتقاء القبائل يحقق التبادل اللغوي، وهذا هو أهم أسباب الترادف. والحقيقة أن هذه الظاهرة ما زالت موجودة حتى يومنا هذا. فهناك مسميات كثيرة يطلق عليها أسماء مختلفة في معظم الأقطار العربية، رغم التقدم في وسائل الإعلام والاتصال.

(١) ابن فارس: فقة اللغة وسنن العرب في كلامها (المعروف بالصاحبي)، في الشلقاني، مرجع سابق، ص٢٢٧.

(٢) الخصائص لابن جني، جـ٢، ص٣١٠، في المرجع السابق، ص٢٢٧.

الاشتقاق:

وتتمثل مرونة العربية وطواعية ألفاظها في الدلالة على المعاني أكثر ما تتمثل في ظاهرة الاشتقاق من المصادر ومن الأفعال وبناء الكلمات الجديدة من الجذور. الأمر الذي دفع بعض المفكرين اللغويين إلى القول: «إن هذه الجذور الشتى، وما يمكن أن يطرأ عليها من تغيرات تعز على الحصر، تجعل من العربية إحدى اللغات العظمى في العالم أجمع. ومن أجل هذا فهي جديرة بأن تعلم. إنها بحق إحدى اللغات الكلاسيكية العظمى»[1]. واللغة العربية لغة إعرابية، فلها قواعدها التي تنظم الجملة، وتضبط أواخر الكلمات. والإعراب في اللغة العربية أثر من آثار استخدام الحركة في التعبير عن المعنى. فالقواعد أساس في تكوين الكلام، لأنها تحدد وظيفة كل كلمة فيه. ولا شك أن تحديد الوظيفة يساعد على تحديد الفكرة، ومن هنا أتى القول بأن الإعراب فرع المعنى، والذي يمكن أن يضاف إليه بأن المعنى أثر للإعراب، «وذلك لأنه قوام هندسة الجملة وتنظيمها»[2].

واللغة العربية لغة تتغير فيها الدلالات بتغير بنية الكلمات. فكلمة «علم» يمكن أن يكون مصدرًا، وفعلاً ماضيًا، وفعلاً مضارعًا، وأمرًا، وأن تدل على الراية، أو تضاف إلى اسم بعدها لتدل على اسم لمادة خاصة مثل: «علم الحساب».. إلى آخره، ويشتق منها أوزان جديدة، كاسم الفاعل، واسم المفعول، وصيغة المبالغة، واسم الزمان والمكان واسم التفضيل.. وهكذا... يبرز مع كل تغير جديد في الكلمة معنى جديدًا. وتعبر هذه الظاهرة عن ثراء اللغة واتساعها للتعبير عن مختلف المطالب والحاجات.

---

(1) Irving, T.B. How Hard is Arabic, Modern Language Journal, 41 (6) 1957, pp. 289-291.

في رشدي أحمد طعيمة:

السس المعجمية والثقافية لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، جامعة أم القرى، معهد اللغة العربية، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م ص١٨.

(٢) محمود رشدي خاطر وآخرون: مرجع سابق، ص٤٦.

قدرة العربية على الوفاء بمتطلبات العصر:

ينبغي أن ننظر إلى اللغة العربي على أنها إحدى اللغات العظمى في العالم اليوم، فقد استوعبت التراثين العربي والإسلامي، كما استوعبت ما نقل إليها من تراث الأمم والشعوب ذات الحضارات الضاربة في القدم، كالفارسية، واليونانية، والرومانية، والمصرية... إلخ.

ولقد كان نزول القرآن الكريم باللغة العربية هو أعظم عوامل الحفاظ عليها وانتشارها «فلقد انتشرت العربية عن طريق القرآن الكريم انتشارًا واسعًا، كما لم تنتشر أية لغة أخرى من لغات العلام. فهي لكل المسلمين اللغة الوحيدة الجائزة في العبادة، ولهذا السبب تفوقت العربية تفوقًا كبيرًا على كل اللغات التي يتكلمها المسلمون»[1].

«حقًا.. إن العربية وعاء لحضارة واسعة النطاق، عميقة الأثر، ممتدة التاريخ.. لقد نقلت إلى البشرية في فترة ما أسس الحضارة وعوامل التقدم في كل العلوم الطبيعية والرياضيات والطب والفلك والموسيقى..»[2].

ولقد اعترفت الأمم المتحدة باللغة العربية كلغة رسمية سادسة في العالم إلى جانب الإنجليزية والفرنسية والأسبانية والروسية والصينية. فهل يكافح العرب لتكون لغتهم من لغات الحضارة العلمية والتقنية المعاصرة؟

اللغة العربية بين التعبير الأدبي والتعبير العلمي:

اللغة العربية مرنة طيعة. فيها الأسلوب الأدبي الإنساني ذو الدلالة الواسعة وفيها الأسلوب العلمي ذو الدلالة المحددة الصارمة.

إن لغة المجال الأدبي الإنساني ينبغي أن تكون مرنة غامضة، مطاطية غير محددة، لأنها أداة للتعبير عن الشعور المتباين من فرد إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، ومن مكان إلى آخر ومن شاعر إلى آخر. فللاستعمال الفردي للغة أهداف تتجاوز الدلالة الظاهرة للفظ إلى دلالته

(١) كارل بروكلمان: مرجع سابق، ص٣٠.

(٢) رشدي أحمد طعيمة: مرجع سابق، ص ص ١٦-١٧.

المجازية، أو الإيحائية. ولهذا فليس من الضروري أن يكون للكلمات معنى واضح، بل ربما كأن أعظم ما فيها أنها ذات غموض مقدس[1].

واللغة في هذا المجال هي التعبير الموحي عند التجربة الشعورية فهي لون من ألوان التعبير الفني المبدع عن الأفكار الكلية والمعاني الإنسانية أي أنها لغة الأدب، وهو مجموع الآثار النثرية والشعرية المتميزة بجمال الشكل أو الصياغة والمعبرة عن أفكار ذات قيمة باقية. والأدب بهذا المعنى الخاص، من الفنون الجميلة التي تبعث في النفس متعة وسرورًا كالقصيدة الرائعة، والمقالة البارعة، والقصة المؤثرة.

وربما كانت العربية في هذا المجال من اللغات التي يصعب أن تضاهيها لغات أخرى. وقد عبر عن هذا بعض المفكرين فقال: «إنني اشهد من خبرتي الذاتية، أنه ليس ثمة من بين اللغات التي أعرفها (وهي ٩ لغات)، لغة تكاد تقترب من العربية سواء في طاقتها البيانية أم في قدرتها على أن تخترق مستويات الفهم والإدراك، وأن تنفذ وبشكل مباشر إلى المشاعر والأحاسيس، تاركة أعمق الأثر فيها. وفي هذا الصدد فليس للعربية أن تقارن إلا بالموسيقى»[2].

أما اللغة العلمية فهي لا تعرف الغموض، ولا تعترف به سبيلاً إلى تحقيق أهدافها التعبيرية. وإذا كانت العربية قد عاشت قرونًا طويلة لغة طبيعية إنسانية، بلغت قمة التعبير الأدبي، فإنها لم تقصر عن مجاراة الحاجة إلى التعبير العلمي. فقد عاشت العربية اللغة العلمية حين بدأت جهود الترجمة للعلوم المختلفة من الحضارات القديمة. كما عاشتها على يد مجموعة من العلماء المسلمين المبرزين في مختلف العلوم مثل حنين بن إسحاق (١٩٤ – ٢٦٤هـ)، وأبو بكر الرازي (٢٤٠ – ٣٢٠هـ)، وأبو عبد الله الخوارزمي (ت ٣٨٠هـ)، وابن سيناء (٣٧٠–

---

١ عبد الصبور شاهين: مرجع سابق، ص ص ١٢–١٣.

(2) Hitti, P.K., History of the Arabs, 6th Ed. London, McMillar & Co. Ltd. Pp. 90-91.

٤٢٨هـ)[١] وغيرهم كثيرون في العصرين القديم والحديث: وعلى أي حال فإن اللغة العلمية يجب أن تتسم بالسمات التالية:

١- استخدام الألفاظ الحسية لا التجريدية.
٢- تفضيل الجملة القصيرة دون الطويلة.
٣- الاقتصار على الضروري من الألفاظ.
٤- تفضيل المألوف من الألفاظ.
٥- تفضيل الأفعال المتعدية.
٦- عدم الإسراف في الصفات.
٧- تفضيل البناء للمعلوم على البناء للمجهول.
٨- عدم استخدام الألفاظ التي لها أكثر من معنى لغموض دلالاتها[٢].

ولا شك أن اللغة العربية قادرة على إنتاج الأساليب العلمية والمصطلحات اللغوية التي تتسم بالسمات السابقة. ففي لغة الاشتقاق من الجذور، وتغير الدلالات بتغير بنية الكلمات، والنحت، إلى آخره.

العربية لغة كاملة:

لقد كال أعداء الإسلام والعروبة الكثير من الاتهامات للغة العربية قديمًا وحديثًا، في الخارج وفي الداخل. فقالوا إنها لغة جامدة وقاصرة عن مواكبة الحضارة، ومستحدثات العصر ومخترعاته. وشجعوا على استخدام لغاتهم الخاصة، كما شجعوا على استخدام العامية بدلاً منها. وقد بدأت الحرب ضد العربية منذ أمد بعيد، ولكنها لم تنته بعد. فهل العربية لغة جامدة، غير متطورة، أو «بدائية»؟

(١) انظر إلى جهود هؤلاء العلماء وأثرهم على مسيرة المصطلح العلمي في كتاب أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين: مرجع سابق...

(٢) المرجع السابق، ص ص ١٤-١٥.

إن الكثير من الباحثين اللغويين يرى أنه لا توجد لغة جامدة أو قاصرة أو «بدائية» وإنما يوجد قوم «بدائيون» أو جامدون. فاللغة، أية لغة –فضلاً عن أن تكون العربية– قادرة دائمًا على التطور والنمو واستنباط المفردات والتراكيب التي تلائم الحاجات الجديدة والمخترعات الجديدة لدى أهلها. فإذا لم يكن لدى أهلها حاجة إلى اختراعات جديدة أو استعمالات جديدة، فإن اللغة تبقى كما هي، وعلى هذا فعدم نمو اللغة –أية لغة– ليس لقصور في طبيعتها أو ذاتها، وإنما لقصور وجمود أهلها.

يقول القاسمي إن هناك افتراضًا خاطئًا «بوجود لغات «متطورة» وأخرى «بدائية». ويثار هذا الادعاء كلما دار الحديث عن بعض القبائل في أفريقيا أو أمريكا اللاتينية. فبعضهم يزعمون بأنها ما زالت في المراحل الأولى من تطورها الحضاري. وإذا اتخذنا المستوى التكنولوجي مقياسًا للتطور الحضاري فمن الممكن القول إن هذه القبيلة أو تلك «بدائية» من وجهة نظر أنثروبولوجية، ولكن هذا القول لا يصدق من الناحية اللغوية. لأنه إذا كان المقصود ببدائية لغة إحدى القبائل هو خلوها من المفردات الخاصة بالمخترعات الحديثة مثلاً، فإن ذلك يرجع إلى عدم تعامل القبيلة بتلك المخترعات، وبالتالي عدم حاجتها إلى ذلك النوع من المفردات. ولكن إذا استدعى تطور القبيلة الاقتصادي استيراد تلك المخترعات، فإن لغتها سرعان ما تقوم بسد الحاجة عن طريق استنباط المفردات اللازمة. فاللغة قادرة دومًا على مواكبة النمو الاجتماعي لجمهور الناطقين بها، وهذا ما يسمى بمبدأ «كمال اللغة»[1].

لقد أثبت التحليل العلمي لكثير من اللغات أن اللغة تتصف دائمًا «بالكمال».. ويعني كمال اللغة.. قدرتها على مواكبة التطور الحضاري بما تستحدثه من رموز تعبر عن كافة أوجه التطور الاقتصادي والتقني والفني والاجتماعي. ولكل لغة طرقها الخاصة في استحداث الرموز الجديدة مثل التوسع في معاني مفردات موجودة فعلاً، أو إضفاء معان جديدة على كلمات قائمة، أو اشتقاق كلمات جديدة، أو نحتها، أو ترجمة المعاني الوافدة، أو استخدام

(١) علي محمد القاسمي: اتجاهات حديثة في تعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى، الرياض، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، ص ص ٧-٨.

كلمات دخيلة أو غير ذلك من الوسائل الصرفية. فليس هناك مفهوم لا تستطيع أن تعبر عنه اللغة بأي من الأساليب السابقة[1].

لقد كانت اللغة العربية في ظلال العصر العثماني تعيش أشد فتراتها ضعفًا، لا لأنها ضعيفة في ذاتها وطبيعتها، بل لأن العرب ضعف شأنهم في ذلك الوقت كما ضعف شأن الدراسة والبحث والعلم في جميع المجالات. ومن يقارن بينها في ذلك الوقت وبينها الآن يجد أنها طفرت طفرة قوية مستخدمة مرونتها وخصبها على التطور مع الحفاظ على شخصيتها، واستجابة لمتطلبات أهلها.

ففي مطلع العصر الحديث قامت حركة تهدف إلى إحياء الماضي العظيم من حضارة هذه الأمة وثقافتها. كما أعلنت عن بداية بعث لغوي جديد شامل. فاشتدت العناية بالبحث اللغوي، والبحث في مسائل الاستعمال اللغوي، وصواب التعبير العربي. وأسست المجامع العلمية في عدد من العواصم العربية كالقاهرة، ودمشق، وبغداد ويغرها. وكانت النتيجة الكثير من المعاجم اللغوية والعلمية، وإيجاد ألفاظ كثيرة مناسبة للعدد الوفير من المدلولات لا سيما في دائرة الشؤون الهندسية والآلية، والطبية، والكيميائية وغيرها مما أنشأته الحضارة الحديثة. وإذا كانت العربية قد قامت فيما مضى –كما يقول يوهان فك– رمزًا لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والحضارة، وإذا صدقت البوادر، ولم تخطئ الدلائل، فإنها ستحتفظ بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة الحضارة الإسلامية ما بقيت هناك حضارة إسلامية[2].

محنة العربية في الشارع العربي:

يقول الدكتور عبد الصبور شاهين: «قد يكون من الطبيعي أن تجد العربية خارج حدودها أعداء يكيدون لها، لكن المفزع حقًا أن يكون بعض هؤلاء الأعداء من بنيها، عن

(١) المرجع السابق، ص١٤.

(٢) يوهان فك: كتاب العربية، القاهرة، مطبعة دار الكتاب العربي، ١٩٥٠، ص ص ٢٣١-٢٣٤، يف محمود رشدي خاطر وآخرون، مرجع سابق ص ص ٥١-٥٣.

قصد أو عن غير قصد. ولذلك فهي تقاتل في جبهتين أقربهما أمرهما وأعصاهما، لأنها تقاتل قطعًا من نفسها (وظلم ذوي القربى أشد مرارة على النفس)، ولو كتب لها النصر في هذه المعركة فإن ما عداها يهون. ونحن نتطلع إلى اليوم الذي يتحول فيه كل العرب إلى عشاق مغرمين بلسانهم، ذائبين في حرفه، يحسنون درسه، ويجيدون نطقه، ويلزمون غرزه فلا ينطقون على أرض العرب إلا بالعربية، وعلى من أراد أن يعيش بين ظهرانيهم من الأجانب أن يتعلم لسانهم، ويعاملهم بكلامهم. عندئذ سوف يكون لهذه الأرض احترامها، وسوف تعود لها مهابتها وعزتها. ولسنًا في هذا بدعًا، فإن أمريكا – على سبيل المثال- لا تسمح بالدخول إليها إلا لمن يعرف الإنجليزية[1].

أما الآن، فإن الوضع مؤسف إلى حد الإبكاء. أقطار كاملة من أملاك العربية، لا تكاد تسمع فيها العربية على الإطلاق، فقد أسلمت قيادها للهجة أو عدة لهجات محلية طاغية على كل ما فيها ومن فيها، في البيت والشارع ووسائل الإعلان والإعلام. وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد، بل إنك لتجد المعلمين في المدارس، والأساتذة في الجامعات يدرسون ويحاضرون أيضًا باللغة العامية. فإذا ما سألت أحدهم: لماذا لا تدرس باللغة العربية؟ فإذا كان عربي التخصص أبدى الندم بسبب تقصيره، ووعد بأن يحاول. وإذا كان مدرسًا لمادة غير العربية وآدابها، فربما جاء اعتذاره أقبح من الذنب وقال: وما أهمية ذلك؟ أنا لست «بتاع» عربي!!. وهنا يحس المرء –حقيقة- أن اللغة العربية ليست بحاجة إلى الاهتمام بتعليمها وممارستها في كل شئون الحياة فقط، بل هي بحاجة إلى الحب أولاً وقبل كل شيء. فهل نستطيع أن نعلم أبناءنا حب لغتهم؟!

وهناك أقطار كاملة أخرى «من أملاك العربية تحتلها رطانات أسيوية وأوربية، تصر على أن تملأ آذان الحياة بضوضائها ولغوها.. حتى ليتذكر المرء وهو ضائع بين هذه الرطانات قول المتنبي في شعب بوان:

(١) عبد الصبور شاهين: مرجع سابق، ص٨.

ولكـــن الفتـــى العـــربي فيهـــا غريـــب الوجـــه واليـــد واللســـان

وربما هان الأمر لو اقتصر على الشارع، فيقول القائل لنفسه: مالي ولهؤلاء، (لكم دينكم ولي دين) ولكن هذه الرطانات قد تسللت إلى داخل البيوت والمخادع، وتولت رعاية الأطفال وفرضت أصواتها ونبراتها ولكنتها على الأسرة العربية، وروجت أذواقها كما روجت بضائعها ومنتجاتها الحضارية، وهذا أخطر ما يواجه اللغة من أخطار تربى على بلاء الاستعمار.

أهي نقمة النعمة؟ أم هو انحلال الترف؟ أم أنها عاصفة وتمضي؟[1]. أرجو أن تكون هي الأخيرة.

إن بعضًا من أساتذة الجامعات والعلماء يصرون على التدريس والتأليف باللغات الأجنبية ويفاخرون بذلك! وفئة أخرى منهم ارتضت أن ترضع أحاديثها ومؤلفاتها بالكلمات والمصطلحات الأجنبية. ودلالة هذا واضحة، نحن لا نحترم لغتنا، ولا نبالي بإثباتها والتأكيد عليها في كل المجالات، وهذا أول الطريق لفناء الأمم!

إننا نريد تعريب المعرفة، لا دعم التغريب وتخليده. وإذا فشلنا في تعريب العلوم وإنشاء مصطلحات جديدة تناسب الارتقاء العلمي في كل المجالات، فإن هذا يعني أمرًا واحد هو أننا متسولون في ميادين الطب والرياضيات والكيمياء والفيزياء والأحياء والصيدلة.. إلخ وسنبقى متسولين أبدًا.. إننا نملك ناصية المعرفة عندما ننقلها إلى لساننا، أما عندما ننتقل نحن إلى ألسنة الآخرين، فسنكون عالة عليهم، وسنبقى أتباعًا ضائعي الهوية، لا قيمة لنا في الأرض، ولا وزن لنا في السماء!

منهج اللغة العربية

يمكن تصور أن الهدف العام لمنهج اللغة العربية هو إقدار المتعلم على أن يكون إنسانًا عربيًا مسلمًا صالحًا قادرًا على المساهمة بإيجابية وفاعلية في عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله.

(١) المرجع السابق، ص ص ٨-٩.

وتأسيسًا على هذا التصور، فإن منهج اللغة العربية في مراحل التعليم العام يمكن أن يتكون من شقين متلازمين: الشق الأول هو «المحور» ويدور حول الفنون اللغوية الأساسية ومهاراتها المختلفة اللازمة لتكوين الإنسان المسلم العربي في المجتمع الإسلامي العربي والشق الثاني يدور حول الأطر الثقافية والحضارية المصاحبة لتعلم اللغة. انظر الشكل التالي:

يوجد رسمة

وهنا يجب أن ندرك أمرين: الأول، هو أن المحور أو الفنون اللغوية ومهاراتها الرئيسية يجب أن تأخذ أكبر قدر من وقت المنهج وأنشطته. وكلما ارتقى التلاميذ من المرحلة الابتدائية إلى المراحل الأعلى كلما ضاقت أنشطة المحور، واتسعت الأنشطة الثقافية والحضارية التي تعمل على إتقان المتعلم للفنون اللغوية ومهارتها الأساسية.

ويهدف تعليم اللغة من البداية إلى تمكين التلميذ من أدوات المعرفة عن طريق تزويده بالمهارات الأساسية في فنون اللغة العربية وهي الاستماع والحديث والقراءة والكتابة، ومساعدته على اكتساب عاداتها الصحيحة واتجاهاتها السلمية، والتدرج في تنمية هذه المهارات على امتداد صفوف هذه المرحلة بحيث يصل التلميذ في نهايتها إلى مستوى لغوي يمكنه من استخدام اللغة استخدامًا ناجحًا عن طريق الاستماع الجيد، والنطق الصحيح، والقراءة الواعية، والكتابة السليمة، المر الذي يساعده على أن ينهض بالعمل الذي يختاره، وعلى أن يواصل الدراسة في المرحلة التعليمية التالية.

من هنا يجب أن ندرك أن اللغة العربية ليست مادة دراسية فحسب لكنها وسيلة لدراسة المواد الأخرى، وإذا استطعنا أن نتصور شيئًا من ظواهر العزلة والانفصال بين بعض المواد الدراسية فلا يمكننا أن نتصور هذا الانفصال بين اللغة وغيرها من المواد الدراسية، أو بين فنون اللغة نفسها.

إن هذا المفهوم يؤكد على النظرة التكاملية للأنشطة العقلية والانفعالية والحركية التي لا يمكن فصلها عن بعضها البعض، فعندما يتكلم الإنسان لغة ما فإن ذلك يعد نشاطًا عقليًا

وانفعاليًا لأن الإنسان يفكر فيما يقول ويضمنه أحاسيسه وانفعالاته. على ذلك لا تفصل التربية الرشيدة، في تعليم اللغة العربية بين عقل التلميذ وجسمه وقلبه.

إن منهج اللغة العربية ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة لتحقيق غاية وهي تعديل سلوك التلاميذ اللغوي من خلال تفاعلهم مع الخبرات والأنشطة اللغوية التي يحتويها المنهج.

أسس بناء منهج اللغة العربية:

يقوم منهج تعليم اللغة العربية على مجموعة من الأسس أهمها ما يلي:

١. يجب أن يراعي هذا المنهج التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، مع الاهتمام ببيان مركز الإنسان في الكون ووظيفته في الحياة.
٢. يجب أن يراعي في بنائه أيضًا طبيعة التلميذ في كل مرحلة، ومتطلبات نموه العقلي والنفسي والجسمي والاجتماعي، وكيف تسهم اللغة في عملية التنمية الشاملة المتكاملة لشخصية المتعلم وتكوين سمات الإنسان الصالح فيه، من رسوخ في العقيدة، وإيجابية في التفكير، ومهارة يف العمل والإنتاج، وشمول في النظر إلى الكون والحياة، ومرونة من أجل التغير إلى الأفضل، واستعداد لمواصلة التعلم واستمراره.
٣. يجب أن يراعي هذا المنهج أيضًا منطق مادة اللغة العربية وخصائصها التي لا بد من أخذها في الاعتبار في عملية التعلم، ووظائفها التي لا بد من العمل على تحقيقها.

ومراعاة طبيعة المادة تقتضي مراعاة طبيعة الموقف اللغوي. فالموقف اللغوي إما أن يكون بين متكلم ومستمع أو بين كاتب وقارئ. وعلى هذا فأركان الاتصال اللغوي أربعة هي الاستماع والكلام والقراءة والكتابة. وطبقًا لطبيعة عملية الاتصال اللغوي هذه، فإن أهم ما يجب مراعاته هنا هو النظر إلى اللغة العربية –شأنها في ذلك شأن أية لغة أخرى– على أنها تتكون من فنون أربعة: هي الاستماع والكلام والقراءة والكتابة وأن هذه الفنون يجب أن تتكامل في عملية التدريس، لن هناك تأثيرًا وتأثرًا بينها. كما يجب البعد قدر الإمكان –خاصة

في المرحلتين الابتدائية والإعدادية عن الاتجاه التقليدي في النظر إلى اللغة على أنها فروع كالقراءة والقواعد والأدب والنصوص والتعبير والإملاء... إلخ.

وانطلاقًا من نظرة التكامل هذه سوف يعتبر الأدب والنصوص لونًا خاصًا من ألوان القراءة، كما يجب أن يعتمد التعبير بنوعيه الشفوي والكتابي على الموضوعات والمواد التي درست في القراءة والأدب والنصوص... إلخ[1].

ومراعاة طبيعة المادة تقتضي أيضًا وجوب تدريس الاستماع والتحدث وتدريب المتعلم عليهما قبل القراءة والكتابة. «فالتركيز يجب أن يقع على العمل الشفهي في الفترة التي يبدأ فيها الطفل تعلم اللغة»[2]، فالحصيلة الشفوية التي يدرب عليها الطفل تكون عونًا له في كل من القراءة والكتابة.

ومراعاة الأسس السابقة تقتضي توافر ما يأتي –إذا أردنا أن نخرج برنامجًا جيدًا لتعليم فنون اللغة:

١- مدرس متفتح لعقل، مبتكر، لديه القدرة على التخطيط والتطوير وإثارة الأفكار الجديدة وطرائق التدريس الفعالة.

٢- جو تعليمي جيد، مثل الحجرات الدراسية المنظمة تنظيمًا مناسبًا والمضاءة جيدًا والمعدة بالأجهزة المتحركة في مساحات واسعة.

٣- توافر الكثير من الوسائل السمعية والبصرية الجذابة التي خطط لاستخدامها بطريقة فعالة، سواء كانت من إعداد المدرس أم كانت من إعداد غيره من الشركات التجارية.

٤- توافر كل أنواع الكتب والمراجع والمجلات والدوريات والجرائد اليومية... إلخ، وذلك في مكتبة متخصصة لكل مرحلة، وفي كل مدرسة.

---

(١) لمزيد من التفصيل في هذه النقطة، انظر، فتحي علي يونس، محمود كامل الناقة، علي أحمد مدكور، أساسيات تعليم اللغة العربية والتربية الدينية، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١.

(٢) صلاح مجاور، مرجع سابق، ص١٠٨.

٥- بناء اتجاه إيجابي نحو التعلم بواسطة التلميذ. وهذا يعني بناء ثقة التلميذ في نفسه وضمان تعاونه في تخطيط وتنفيذ منهج تعليم فنون اللغة العربية.

٦- إعداد منهج متكامل لتعليم فنون اللغة، منهج تتوافر الروابط والعلاقات بينه وبين المواد التعليمية الأخرى. فلا ضير إذا انتقل التلاميذ إلى فصل تعليم العلوم أو تدريس المواد الاجتماعية لاستخدام المواد الموجودة هناك في تعليم اللغة، ولتعليم التلاميذ كيف يكتبون موضوعات جيدة مستخدمين المواد الموجودة في هذه الفصول، وتعليمهم كيف يجيبون على أسئلة المناقشة، ويقومون ببعض البحوث[1].

إن دقة تدريب التلميذ على المهارات الأساسية في فنون اللغة المختلفة سوف يحدد –إلى حد كبير– مدى تقدم التلميذ في مناطق المعرفة الأخرى. وهناك اتجاه متزايد للحكم على البرنامج التعليمي كله عن طريق معرفة مدى فاعلية وتأثير برنامج تعليم الفنون اللغوية، فهل لهذا البرنامج تأثير إنساني على التلميذ؟ وهل يساعده على أن ينمو اجتماعيًا؟ وهل يزود التلميذ بالمهارات الضرورية لفهم المواد الدراسية الأخرى؟[2].. إلى آخر هذه التساؤلات التي تكشف عن مدى تأثير برنامج تعليم اللغة في تعلم المواد الدراسية الأخرى.

تقسيم اللغة إلى فروع:

يتبين للدارس لمنهج اللغة العربية في مدرسنا أنه مقسم إلى فروع هي: القراءة والأدب، والتعبير، والنحو، والإملاء، والخط.

ووجهة نظرنا أن هذا التقسيم للغة تقسيم جائر لا يراعي وحدة اللغة. فاللغة كالكائن الحي الكامل المتكامل. ونحن إذا نظرنا للغة وجدنا أنها فنون أربعة. استماع، وكلام، وقراءة، وكتابة. فالطفل يولد ويستمع، وبمضي الزمن، وعن طريق الاستماع يتكلم. وهو يستعين في قراءته وفهمه لما يقرأ بما استمع إليه وما تحدث به. وكل هذا يعينه على الكتابة الصحيحة.

(1) Taytor, E., A New Approach to language Arts in the Elomontary School, New Yourk, Parker Publishing Company, Inc., 1970, pp. 16-17.
(2) Ibid. p. 25.

فالاستماع هو الفن اللغوي الأساسي الذي يجب التدريب عليه من البداية. والكلام هو التعبير الشفوي. والقراءة تتضمن فيما تتضمن الأدب شعره ونثره، للأطفال وللكبار. والكتابة تتضمن التعبير التحريري والخط والإملاء. أما النحو فهو القاسم المشترك الأعظم بين كل هذه الفنون.

وفي المرحلة الابتدائية بصفة خاصة يجب أن تتداخل هذه الفنون، فالكلمات التي يستمع إليها التلميذ ويفهمها هي التي يمكن أن يستخدمها في حديثه. ويستعين التلميذ في فهم ما يقرأ بما استمع إليه وما استخدمه في حديثه.

وعلى هذا إذا قام المدرس بتنمية الثروة اللغوية في أي فن من هذه الفنون فإنه يسهم في تنمية الثروة اللغوية في الفنون الأخرى. أي أن هذه الفنون يجب أن تتكامل في عملية التدريس.

ولكن الملاحظ في منهج اللغة العربية بصفة عامة هو عدم الاهتمام بفني الاستماع والحديث رغم أنهما يحتويان الكثير من المهارات اللغوية الضرورية للنمو اللغوي!

أهمية التكامل في تدريس اللغة العربية:

إن اللغة العربية ليست مادة دراسية فحسب، ولكنها بالإضافة إلى ذلك وسيلة لدراسة المواد الدراسية الأخرى التي تدرس في مختلف المراحل التعليمية. وإذا استطعنا أن نتصور شيئًا من ظواهر العزلة والانفصال بين المواد الدراسية، فلا يمكننا أن نتصور هذا الانفصال بين اللغة وغيرها من المواد الدراسية، علمية كانت أو أدبية.

وإذا كانت اللغة العربية هي مادة التخصص لمدرسي اللغة العربية، فهي بالنسبة إلى سائر المدرسين مفتاح المواد التي يقومون بتدريسها، كما أنها وسيلتهم الأولى لقراءة مراجع هذه المواد وشرحها للتلاميذ وتأليف الكتب التي يدرسونها لهم.

وهناك علاقة وطيدة بين اللغة وغيرها من المواد، فقد ثبت بالتجربة أن تقدم التلاميذ في اللغة العربية يساعدهم على التقدم في كثير من المواد الأخرى التي تعتمد في تحصيلها على

القراءة والفهم. فالتلميذ المتمكن من اللغة يفهم ما يقرأ بسرعة ويلم بما يقرأ في المواد الأخرى أسرع من الآخرين.

وكثير من الخطأ في إجابات التلاميذ يعود إلى عدم قدرتهم على فهم ما يقرءون، أو إلى ضعفهم في التعبير عما يعرفون.

وعلى هذا فإن كثيرًا من المواد الدراسية الأخرى كالتاريخ والجغرافيا والدراسات الاجتماعية عمومًا يمكن اتخاذها مادة للدراسات اللغوية.

وعلى مدرسي اللغة العربية أن يتعرفوا على المواد الدراسية الأخرى ويختاروا من مادتها ما يصلح للدراسات اللغوية، لأن هذا يؤدي إلى تكامل المعرفة في أذهان التلاميذ ويؤدي إلى الربط بين الحقائق والمعلومات الموجودة في مواد المنهج المختلفة.

وهذه بعض الأمثلة للربط بين المواد الأخرى واللغة العربية:

الحساب:

لا يستطيع التلميذ فهم مسألة حسابية إلا بفهم لغتها ودلالات ألفاظها وعبارتها. وقد أثبتت التجارب أن التلاميذ أخفقوا في حل المسائل الكلامية لعدم فهمهم للغة التي صيغت بها هذه المسائل.

العلوم:

يمكن أن يتاح للتلاميذ في هذا المجال التدريب على الاستعمال الدقيق للمصطلحات العلمية، وهذا يساعد على الوضوح الفكري وتنمية قدرة التلميذ على الاستخدام السليم للأساليب اللغوية.

الدراسات الاجتماعية:

إن الدراسات الاجتماعية مجالات خصبة وواسعة للتدريب اللغوي. ففيها كثير من الموضوعات والمشكلات التي يمكن استغلالها لغويًا وجعلها مجالاً للتعبير الشفوي أو التحريري كما يمكن أن تصير مادة للقراءة والإملاء والخط.

الرسم والأشغال والأعمال اليدوية:

تتيح هذه المجالات للتلاميذ أن يقوموا بأنواع من النشاط تبعد إلى حد ما عن اللفظية غير أن كثيرًا من طرق التدريس الجيدة ترتبط بأنواع السلوك والخبرات المختلفة وتوجد تكاملاً بينها.

وفي هذا المجال يمكن تدريب التلاميذ على التعبير عن اللوحات التي رسموها أو الأشكال التي صنعوها. كما يمكن للمدرس أن يتحدث عن فكرة معينة ثم يطلب من التلاميذ رسمها أو تجسيمها بأي شكل من أشكال التبيعر الفني.

إن من الخطأ أن يقوم مدرسو المواد الأخرى بالتدريس باللغة العامية، فذلك لا يساعد على تعلم اللغة العربية. ويصبح الخطأ جسيمًا عندما يدرس مدرس اللغة العربية باللغة العامية. إن اللغة لا تعلم إلا باللغة نفسها. فهل يتصور أن يتعلم التلاميذ اللغة العربية من مدرس يتكلم أمامهم، بل ويدرس لهم باللغة العامية؟!!

إن أفضل أسلوب لعلاج الوضع القائم الآن (وهو تدريس اللغة على أنها فروع) هو أن نأخذ تدريس اللغة كفنون يرتبط كل منها بالآخر ويؤثر فيه ويتأثر به. أي أن ندرس اللغة العربية على أنها استماع، وكلام وتحدث، وقراءة، وكتابة. وقد يكون هذا طريقًا موصلاً إلى تدريس اللغة بطريقة الوحدة.

وطبقًا لهذا المنهج سنتناول الفنون اللغوية على النحو التالي:

أولاً: الاستماع، **وسوف نركز فيه على طبيعة علمية الاستماع، ووظائفه، ومهاراته،** وأهداف تدريسه، ومحتواه، وطريقة تدريسه ووسائل تقويمه.

ثانيًا: الكلام أو التحدث، ونقصد به التعبير الشفوي بكل ألوانه وأساليبه. وسوف نتناول في هذا الموضوع طبيعة عملية الكلام، ووظائفه، ومهاراته، وأهداف تدريسه، ومحتواه، وطريقة تدريسه ووسائل تقويمه.

ثالثًا: القراءة، ونتناول بالإضافة إلى ما عهدناه في هذا الموضوع، الأدب والنصوص والبلاغة والنقد.

رابعًا: الكتابة، وسوف نتناول فيها التعبير التحريري، ومهارات التحرير العربي.

خامسًا: سوف نفرد للقواعد فصلاً خاصًا قائمًا بذاته وهو الفصل الأخير إن شاء الله.